

صلاح الدين

بإمامه الأئمة

في هذه القبيلة ومن هذه الأسرة ولد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو من أكبر ملوك المسلمين همّة وأقوام شوكة وأشدّهم صولة وأبعدهم صيتاً . ولد بمدينة تكريت سنة ٥٣٢ هـ (وهذه السنة توافق المدة من ١٩ سبتمبر سنة ١١٣٧ إلى ٨ سبتمبر سنة ١١٣٨ م) ولا يعرف التاريخ الشهر الذي ولد فيه صلاح الدين ، ويحتمل على هذا أن يكون قد ولد في سنة ١١٣٧ ، ذلك ما يقوله استبانلي لين پول ومما يحقّقه قول ابن شداد في سيرة صلاح الدين « كان مولده رحمة الله عليه على ما بلغنا من السنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسة وذلك بقلعة تكريت »

كانت ولادته يوم أن أمر مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت والدّه نجم الدين وعمه أسد الدين بمغادرتها لقتل شيركوه أحد ضباط القاعة للملاحاة بينهما ، ويقول بعض مؤرخي الأفرنج إن ولادة صلاح الدين كانت يوم أن أمر بهروز والدّه وعمه بالخروج من تكريت ، وهو زعم فاسد ، ذلك لأن الناس اعتادت الظن بأنه كلما ولد عظيم من العظماء لا بد أن يوافق يوم ميلاده حدوث حادث ذي بال

على أن هؤلاء القائلين قد ظنوا أن في إجماع المؤرخين على ربط
الحادثين بعضهما ببعض ما يثبت زعمه الذي زعمه ، ولكنى لا أرى أهمية
لهذا التعليل ، ولم يتحمل المؤرخون هذا كله ، فليولد العظيم في أى يوم
كان خمل هذا اليوم أو نبه

غير أنه مما يؤكد عندى أن ولادة صلاح الدين حدثت عند وجوب
رحيل أهله من تكريت ، إجماع المؤرخين من جهة ، ومن جهة أخرى
ما ذكره الكاتب النصرانى الذى كان في خدمة نجم الدين ، والذى رحل
معه إلى بعلبك ثم إلى مصر ، وذكر نجم الدين بما كان قد هم به من قتل ولده
صلاح الدين عند ما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة ، وقال
له لعل الله جاعل له شأنًا ، فاستبقه فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف
ما أنت فيه من الكدر والغم ؛ ذكره بهذا يوم أن كان الجميع في مجلس من
محاسن شورى صلاح الدين بمصر ، وهى حادثة وردت في أكثر الكتب
الموثوق بها والتي كتبت عن صلاح الدين

وإلى حالهم المكدر بسبب رحيلهم يشير استانلى لين قول بقوله
« فرحلوا عن تكريت تحت عامل اليأس والندامة وسوء الطالع »
ثم يقول « وتشاءم أيوب من أنه ليلة رحيلهم رزقهم الله بمولود جديد من
أيوب ، فكان ظهور هذا المولود لديهم من أنحس الحظوظ وأكثرها شراً
وكان بكاء هذا المولود مما يزيد في سخط والده عليه »

وفي هذا برهان على صحة ما قاله الكاتب النصرانى ؛ ومما يزيده صحة

ما جاء في كتاب طبقات الشافعية عند الكلام على صلاح الدين « وقيل إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين ، فتطيروا به وقال بعضهم لعل فيه الخيرة وأنتم لا تعلمون ، فكان كذلك »

مر بنا الكلام أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان محافظاً لقلعة تكريت من قبل بهروز ، وقد حدث أثناء ولايته عليها أن سار عماد الدين زنكي والد محمود نور الدين زنكي وصاحب الموصل بجيش لمظاهرة السلطان مسعود - كما يقول ابن خلدون - على الخليفة المسترشد سنة ٥٢٠ هـ وانهمزماً إلا تأبى عماد الدين ، وانكفأ راجعاً إلى الموصل ، ومرت بتكريت ، ولم يكن له أمل في الخلاص هو وفلول جيشه إلا في هذه القلعة وأصبحت حياته هو وجيشه في يد مستحفظ تكريت ، إن شاء أسعدهم وإن شاء أرداهم ؛ ولكن لحسن حظه فضل الأُحسان على الأُسَاءة وقدم المساعدة لعماد الدين وقام بعافيته وإزواده ، وعمل له الجسور على دجلة وسهل له عبوره ، فكانت هذه اليد هي التي بنت ملك أيوب وأقامت عز صلاح الدين وبيته ، لأنه لما أخرج بهروز نجم الدين وأخاه أسد الدين رحلاً إلى عماد الدين زنكي الذي لم يكن لينسى فضل تكريت ومستحفظها عليه يوم هزيمته ، بل بقي يذكرها ويذكر فضلها ويقر بما لها عليه ، حتى إذا ما وصل إليه نجم الدين وأخوه شيركوه أحسن وفادتهما وعرف لهما سابق معروفيهما ، فاقطعهما إقطاعاً حسناً

عاش نجم الدين وأخوه شيركوه هناك بسلام ، ومعهم المولود الصغير يعملان في جيش زنكي ، فبرهنا على مقدرة فائقة ، وحضرا عدة مواقع .

ولما سقطت بعلبك في يد زنكى سنة ٥٣٤ (١١٣٩ م) عهد بها إلى أيوب وعينه محافظا عليها ، وفي هذا الاختيار برهان قاطع على مقدار وثوق زنكى بنجم الدين أيوب وحسن اعتماده عليه

توفي زنكى واقتسمت أولاده ملكه من بعده ، واستولى ولده محمود نور الدين على الشام ، وهبت دمشق لاسترجاع بعلبك ، ونظر أيوب بما أعطي من الحذق والمهارة وبعد النظر فرأى أن الدمشقيين لا بد لهم من أن يسترجعوا المدينة ، إذ الأخوان ولدا زنكى لا يزالان يقتسمان تراث ملك والدهما ، فقبل نجم الدين تحت هذه العوامل كلها أن يسلم للدمشقيين بعلبك على شريطة أن يقطعوه عشرة ضيعات بجوار دمشق ، وأن يهبوا له قصراً في دمشق نفسها لسكناه ، فقبل الدمشقيون شروطه هذه ثمناً لمدينتهم بعلبك ، فرحل أيوب إلى مقره الجديد وسكن دمشق وأظهر من الفطنة والذكاء والخبرة ما حبيه إلى أبيك أكبر أولاد توغتكين ، وما زال يقرب نجم الدين إليه ويهبه من الوظائف في حكومته ما أوصله إلى مرتبة قائد قواد دمشق كلها . ولا بد أن يكون أيوب قبل أن يصل إلى هذا المركز السامى قد لعب دوراً هاماً عند ما قام الأفرنج بحصار دمشق أيام أنار الذى وصل أيوب بعد وفاته إلى مركز القيادة لقواد الجيوش

وبينما كان أيوب يخطو هذه الخطوات في حياته ، كان أخوه أسد الدين شيركوه يعمل في جيش محمود نور الدين بجدة وهمة ونشاط ، حتى أن نور الدين لم يكتف باقطاعه الأقطاعات العديدة بل أقامه قائد قواد

جيوشه كلها لما ظهر له فيه من الأقدام والبسالة والشجاعة النادرة المثال في هذا الوقت كان قد مات أنار الذي طالما وقف في وجه زنكي فمنعه دخول دمشق تلك التي كانت محط آماله ومنتهى رغباته ، وأصبح أيوب - أخو شيركوه قائد قواد نور الدين - صاحب الكلمة في دمشق ، كما أن الأفرنج قد انكسروا شر كسرة في حملتهم الثانية الصليبية عند ما قاموا بحصار دمشق ، وكذلك هدأت الأحوال في بلاد الجزيرة تحت إمرة أخي نور الدين الكبير ، وأدى أمير دمشق الطاعة لصاحب حلب ، وهو محمود نور الدين الذي ورث طمع والده في دمشق نفسها ، فأرسل نور الدين هذا جيشاً بقيادة شيركوه إلى دمشق في أواخر سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٤ م) فلم يشأ نجم الدين أن يقوم في وجه أخيه من جهة ، ولم ير ضأن يقوم في وجه جيوش ابن سيده من جهة أخرى ، فأخذ يفاوض أخاه ، وانتهت المفاوضة بعد ستة أيام بدخول جيوش نور الدين دمشق ، فانتقلت المدينة إلى يد أقوى أمير في الشام لوقته ونال الإخوان بذلك أحسن الجزاء على ما قام به من الخدمة الصادقة والأخلاص ، وأصبح نجم الدين من أخص جلساء نور الدين ، بعد أن عينه حاكماً لدمشق ، وبقى بها حتى استدعاه ولده صلاح الدين إلى مصر كما سيأتي بعد

قضى صلاح الدين في بعلبك بعض سني طفولته ، وهي من أسعد السنين وأهنئها ، إذ لا يلتفت إليها مؤرخ ، ولا يهتم بها كاتب ؛ ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من أخبار الحياة الخاصة بنجم الدين وأسرته في بعلبك ، غير أن الذي يمكننا ملاحظته هو أن صلاح الدين ، باعتباره طفلاً مسلماً ، لا بد أن يكون قد اختلف إلى الكتاب كما يختلف إليه غيره من أولاد المسلمين

لحفظ القرآن الكريم ولتعلم القراءة والكتابة ، كما أنه تلقى هناك أيضاً مبادئ النحو ومبادئ الشعر وقواعد اللغة . فقد جرت العادة أن يتعلم أولاد حكام المساميين ، مهما كانت جنسياتهم ، اللغة العربية والقرآن والحديث والنحو . هكذا يقول استانلي لين پول

ولما كان والده من رفعة القدر بحيث ينزل عادة حاكم المدينة ، فقد يتبادر إلى الذهن أن قد جيء إلى صلاح الدين بأحسن المعامين الممكن الحصول عليهم في ذلك الوقت ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا من ذلك شيئاً إلا ما ورد في كتاب طبقات الشافعية ، وذلك إنما يتصل بأيام شبابه لا بأيام طفولته . يقول صاحب هذا الكتاب « وسمع - صلاح الدين - الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي وأبي الطاهر بن عوف والشيخ قطب الدين النيسابوري وعبد الله بن برى النحوي وجماعة » ثم يقول « وكان فقيهاً يقال إنه كان يحفظ القرآن والتنبيه في الفقه والحجاسة في الشعر » ومهما يكن من الدرجة التي وصل إليها صلاح الدين في حياته الأولى هذه ومقدار الأساتذة الذين تولوا تربيته الأولى ، فإن الصلة بين ذلك وبين ما صار إليه فيما بعد ليست بذات خطر

أما في المدة التي وقعت بعد استيلاء نور الدين على دمشق ، وبين إرساله أول حملة على مصر ، فلم يذكر المؤرخون المسلمون المتقدمون شيئاً عن حياة صلاح الدين أثناءها ، أما مؤرخو الأفرنج فقد قال بعضهم إن صلاح الدين كان يتردد إلى مجلس نور الدين ، وله من الاعتبار والاحترام ما لا ينحصر في ذلك ، ثم يستنتجون من الأحوال وقتئذ أنه ظهر بظهور

الشباب المهذب الهادى، المطمئن المتدين المتقد غيرة على الأسلام والمسامين بما طُبع في نفسه من آثار نور الدين الذى أنزله لديه منزلة خاصة ، وبما لوالده من الأيادى البيضاء ، بيد أن حالته هذه لم تنم على ما كان له بعد ذلك من العز والسيطان والسطاوة والجبروت

كان من عادة الأمراء السوريين الولى بالصيد والقنص ومنازلة الحيوانات السكسرة وتربية الطيور ، وليس هناك من ريب في أن صلاح الدين كان في مصاف هؤلاء الأمراء منزلة ، ومن أعظمهم شأنًا وأرفعهم قدرًا وأعلام كعبًا ، لما كان لوالده وعمه من المنزلة عند نور الدين ، كما سبقت به الإشارة ، غير أن مؤرخى الأفرنج يقولون بأنه رغمًا من هذا لم يسمعوا بأن صلاح الدين ولى بالصيد والقنص أو تربية شىء من الطيور والحيوانات ، بل كل ما عرفوه عنه كما يقولون هو أنه سلك سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ، على مثال والده من الرزاة والحكمة ، خلافا لما كان عليه عمه من الأقدام ، ثم يقولون بأنه إذا جاء دور العمل ووجد أمامه طريقًا وعراً صعباً لكن يقود إلى الشهرة والعظمة ، وآخر سهلاً ليناً يقود إلى الشرف والسكينة ، وجدته يفضل الثانى على الأول ؛ وإنى أظن بل أعتقد أن الذى قاد هؤلاء إلى مثل هذا الظن بصلاح الدين ، امتناعه عن أن يرافق عمه في غزو مصر المرة الثالثة لولا تشبث عمه بضرورة رحيله معه ؛ على أنهم لو ركنوا إلى هذا الحادث ونسبوا له ما نسبوا ، ما كان لهم أن ينسوا ما عاناه من المتاعب في المرتين الأولى والثانية ، وقيامه في وسط الجميع يصفق استحساناً واعجاباً لذلك الذى قال قبيل واقعة

البابين، عندما استشار شيركوه القوم في الأوبة إلى الشام أو العمل في مصر « إن الذين يخافون الموت ويستكبرون الأسر، لا ينبغي لهم أن يخدموا الملوك، فليخلعوا ثياب الجند، وليلبسوا ثياب الخرائين، أو فليكونوا رهن بيوتهم في أحضان نسائهم » فطرب صلاح الدين وصفق له حتى كادت تدمى يداه، في حين أن جميع أركان حرب شيركوه كانوا على رأي من قال بعدم المجازفة في دخول غمار الحرب، وكان هذ سبباً في أن استمر شيركوه في غزوته، واستولى على الإسكندرية وكان من أمره ما استعمله فيما بعد

أما عدم ولوعه بالصيد والقنص فيخيل إلى أن القوم قد بالغوا فيه، كلنا يعلم مقدار عشق العربي لجواده وركوبه والسباق به، ويعرف ما يتحلى به الطفل العربي من هذه الخصال، وهي حال محسوسة نرى منها الكثير حتى في الأعراب الذين يجاورون قرى مصر وكادوا يكونون قرويين، فان الفروسية وامتطاء الخيل لا تزال عادة لهم، يالفونها منذ طفولتهم، فلم يشذ صلاح الدين وهو ذلك الكردي الأصل، وقد وصفنا الكردي وحاله فيما مضى؟

ألا إن القوم يريدون بذلك أن يخرجوا صلاح الدين من مكانه الساكن إلى إقدامه وبساتته النادرة التي ظهرت فجأة، فيقولون إن هذا سر من أسرار الله لأمر أراده، فننفخ في صلاح الدين هذه الروح من عنده دون سابق إعداد إليها، ألا فلينظروا ما كتبه العماد سنة ٥٦٣ هـ إلى صلاح الدين وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب الكرة مع نور الدين

لا تنكرون لسابح عشرت به قدم وقد حمل الحضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه فهو هنالك للسلام مبادراً
سبق الرياح بحريه وكففته عنها فليس على خلافك قادراً
ضعفت قواه إذ تذكر أنه في السرج منك يقل ليشأخادراً
ومنى تطيق الريح طوداً شامخاً أو يستطيع البرق جونا ماطراً
فأعذر سقوط البرق عند مسيره فالبرق يسقط حين يخطف سائراً
وأقل جوادك عثرة ندرت له إن الجواد لمن يقيّل العاثراً
وتوق من عين الحسود وشرها لا كان ناظرها بسوء ناظراً
واسلم لنور الدين سلطان الورى في الحادثات معاضداً ومؤازراً
فاذا صلاح الدين دام لأهله لم يحذروا للدهر صرفاً ضائراً
ويقول العماد فى موضع آخر ما يوضح ولوع نور الدين بضرب
الكرة ويذكر بهذه المناسبة أن صلاح الدين كان يركب مبكراً كل بكرة
يقول هؤلاء المؤرخون إن الذي لا يمكن نكرانه على صلاح الدين،
أنه كان أحد أولئك الأفراد الذين متى ذاقوا طعم الملك ولذة السلطان
مرة لم يتركوا بعد ذلك فرصة فى مد سلطانهم ونشر قوتهم . ولست
أدرى كيف يتفق قولهم هذا مع امتناعه من الذهاب إلى مصر مرة
ثالثة بعد أن ذاق طعم الأمانة بالأسكندرية فى الحملة الثانية على مصر
كان العلماء يفسدون إلى دمشق أيام نور الدين من الشرق والغرب ،
من سمرقند ومن قرطبة ليعاموا ويتعاموا فى مساجدها ومدارسها ؛ ومن
الراجع كثيراً أن صلاح الدين قد استمع على أكثرهم لا سيما عندما كان

يجلس في الجامع الأموي عبد الله بن عصرون يلقي محاضراته هناك ؛ وما أظن صلاح الدين تلمذ لأحسن من هذا الأستاذ الذي كان إمام عصره في مواهبه ومداركه ، وهو الذي أحضره نور الدين وابتنى له المدارس في دمشق وأمّهات مدن الشام ، ليدرس بها وينشر العلم في ربوع الشام كلها ، وقد بلغ هذا الشيخ إلى مركز قاضي قضاة الجزيرة . ومن أجل ما يتحدث به عن صلاح الدين وإخلاصه أن قد أثبت عليه مروءته إلا أن يقرب هذا الشيخ من مجلسه عند ما فقد بصره ، فجعله من أخص خواصه يدهش بعض المؤرخين إذا قارنوا بين حياة صلاح الدين الأولى ، وهي على ما هي عليه من الهدو والسكينة ، وبين ما كان عليه عمه شيركوه من الأقدام والاندفاع وراء أطماعه الكبيرة التي كانت تقوده في بعض الأحيان إلى منافسة نور الدين نفسه لولا ما كان من حكمة أيوب

قام شيركوه بامارة الحج سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠ م) وأظهر فيها من الكفاءة ما أنطق لسان الجميع بمدحه ومقدرته ، وتنكر علماء الأفرنج على صلاح الدين عدم الذهاب مع عمه لتأدية فريضة الحج على الأقل إن لم يكن للقيام ببعض أمور هذه الرحلة ؛ على أنه كيف يقولون عنه إنه كان شاباً صالحاً ناسكاً ، وهذه فرصة قل أن يسمح الزمان بمثلها وهي وجود عمه أميراً للحج دون أن يتقدم لمصاحبته لتأدية الفريضة ، ما دام متعبداً لله خاشعاً ؛ غير أنني لا أوافق القوم في مسألة تدين صلاح الدين إلى حد أن صار من المنزوين في أركان المساجد وزوايا البيوت . كيف نجتمع بين هذه الحال وبين ما يقوله صاحب حماء في تاريخه « ولما فوض الأمر —

أمر وزارة المعاهد - إلى صلاح الدين ، تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجدة ، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله ، ولم نسمع أن شارب الخمر المنغمس في اللهو يكون هادئاً مطمئناً ديناً لله خاشعاً يقول هؤلاء المؤرخون إنه كان شيركوه نصيب كبير في فتوحات نور الدين ولم يسمموا أن صلاح الدين اشترك في واحدة منها ، ولو فعل لذكره له مؤرخوه ، والمعروف عنه أنه ظل ساكناً في مكمنه ، حتى بدأ شيركوه بحملاته على مصر ، فهجر صلاح الدين عزلته وخطى بجسارته تلك الخطوات التي جماعته سلطان المستقبل ووارث زكي بطل الأسلام والمسلمين . على أن هذا يخالف ما ورد في كتاب الروضتين في رسالة من أنشاء القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء بأمر الله في بغداد عندما دخل دمشق يقول فيها « كان أول أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين بمساكرنا نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو محقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر أو مصاف الأسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ولا يجحد عدونا أنا نصطلي الجمره ونملك الكرة وتتقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندير التعبية إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، وكانت أخبار مصر الخ » على أنه رغم هذا فالمقارنة لا تجوز بين شيركوه وصلاح الدين إذ أين قائد القواد من ابن حاكم دمشق ، وأين الشيخ من الشاب في أعماله وأحواله

هذا رأي مؤرخي الأفرنج في حياة صلاح الدين الأولى ولست

على رأيهم فلي نظروا يخالف نظركم في صلاح الدين ، ذلك البطل الذي ظهرت
فروسيته وشجاعته فلأت قلوب الأفرنج رعباً وفزعاً ، ذلك الذي إن صال
صولة انتزعت لها قلوب الأعداء من أمكنتها هلعاً ، وإن طاف طوفة
شخصت لها عيونهم إكباراً له وتعظيماً ، فهل ظهر بهذه الصفات في
العقد الثالث والرابع والخامس من حياته دون أن يكون لها نصيب في
عقديه الأول والثاني ، لا سيما إذا لاحظنا أنه كردى ، وقد علمنا ما للأكراد
من الشجاعة منذ نعومة أظفارهم ؛ تلك طبيعة فيهم لا يستطيعون الفرار
منها ، فكيف بصلاح الدين وقد جمع بين كردية أصله ونباهة والده وسمو
منزلته ، فإذا أغفلنا أنه كردى الأصل من نسل قوم اشتهروا بالشجاعة
والأقدام ، فهل نغفل أنه ابن حاكم دمشق وأنه أمير من أمراء المقيمين ؟
هذا فيما يخص بفروسيته وعدم ولعه بالخيول وركوبها والقنص والصيد ؛
أما فيما يخص بعيشة العزلة بعيداً عن الأعمال الدنيوية إلا ما تقرب بها إلى
الله ، فكيف برجل كان جالس نور الدين ولا يشتغل بالأمور العامة . يجلس
الفرد منا في مجلس خاص اعتاد الكلام في موضوع خاص فلا يلبث أن
يكون واحداً منهم ؛ فلم لا يكون هذا حال صلاح الدين مع نور الدين ؟
اللهم إن القوم يريدون أن يقولوا إن الله أرسل صلاح الدين هادياً ومبشراً
ونذيراً ومنتقماً . يريدون أن يقولوا إن هذه صفة يهبها الله لعبده من
عباده ليقوم بعمل يريد به هو سبحانه وتعالى ثم يذهبون من هذا إلى قولهم
إن الله بعث بطرس الناسك فحرك بقوة ربه أوروبا لتنقذ قبر المسيح
والبلاد المقدسة من أيدي المساكين العابثين بها ، فلكموا البلاد وأذلوا العباد

وشتتوهم أيدي سبا وأقاموا لهم ملكاً عظيماً . فلما ضربوا في الأرض وظنوا
 ألا قوة إلا قوتهم ، طغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ما احمرت
 منه الأرض خجلاً ، فأرسل الله صلاح الدين بروح من عنده لم يعرفها أحد
 عليه قبل ذلك ليوقع عقابه بهم على يديه ، فكان من أمره ما كان ، هذا
 ما يريد القوم إظهاره ، ولكن لدينا ما يثبت أن حياة صلاح الدين كانت على
 غير ما وصف هؤلاء فقد قال ابن شداد في كتابه - النوادر السطانية -
 مانصه « واتفق لو الله أي والد صلاح الدين -- الانتقال إلى الشام وأعطى
 بعلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور - أي صلاح - الدين إلى بعلبك
 المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ندي محاسن
 أخلاقه حتى بدت منه إمارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ،
 فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى ، وعول عليه
 ونظر إليه وقربه وخصصه ، ولم ينزل ، كلما تقدم قدماً ، تبدو منه أسباب تقتضي
 تقديمه ، إلى ما هو أعلامه »

ولما استصرخ شاور بنور الدين ، وأصر أسد الدين شيركوه بالخروج إلى
 مصر قضاءً لحق الواقد المستصرخ ، تأهب أسد الدين - كما يقول ابن شداد -
 وسار إلى مصر ، فاستصعبه - أي صلاح الدين - معه رحمه الله عن كراهية
 منه لمكان افتقاره إليه وجعله مقدم عسكره . فكيف يكره نور الدين رحيل
 صلاح الدين أن لم يكن له في وجوده معه أكبر عصب ، وكيف يجعله مقدم
 العسكر إذا لم يكن قد باشر الحرب والنزال من قبل ؟ ثم يقول ابن شداد
 « وكان - أي أسد الدين - لا يفصل أمراً ولا يقرر حالاً إلا بمشورته ورأيه

لما لاح له من آثار الأقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر
بمركاته وسكناته »

وجاء في دائرة المعارف للبستاني تحت كلمة صلاح الدين ما نصه
« مؤسس الدولة الأيوبية بديار مصر وصاحب البلاد المصرية والشامية
والعراقية واليمانية ، الغازي المشهور وصاحب الفتوحات العظيمة والمواقع
الكبيرة مع الأفرنج في الحروب الصليبية ، تربى في كنف والده حتى ترعرع ؛
ولما ملك نور الدين محمود بن زنكي دمشق لازم خدمته نجم الدين وولده
صلاح الدين ، وكانت مخايل السعادة والتقدم تلوح عليه ، ونور الدين يرى ذلك
منه ويؤثره ، وومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد
في أمور الجهاد »

وجاء في كتاب تلياني ما ترجمته « كان صلاح الدين رجلاً شجاعاً
عظيماً مقداماً تمكن بمواهبه الفطرية التي فطر عليها أن يرفع نفسه لا إلى
درجة سلطان (بابلون) فحسب بل أوجد لنفسه مجالاً صار به فاتح البلاد
ومدوخ الأمم النصرانية الأفرنجية في مواقع عدة انتصر فيها عليهم انتصاراً
باهراً ، كما أنه حاز من النصر على غيره من أمراء الشرق ما جعله سلطان عصره
وأمر الأُمراء لوقته »

وجاء في دائرة المعارف الأنجلويزية ما ترجمته « ولقد تربى صلاح الدين
على هذا — أي باعتبار أن والده كان حاكماً دمشق — في أكبر مراكز
للتعليم الإسلامي ، وقد ظهر صلاح الدين في ثوب أحسن متعلم مسلم »
ويقول الأمير علي في كتابه (مختصر تاريخ الإسلام) ما ترجمته

« أما صلاح الدين فقد تولى عدة وظائف تابعة لمولاه نور الدين قبل مجيئه إلى مصر مع عمه »

ويقول صاحب كتاب الروضتين « فلما كانت هذه السنة (٥٦٢ هـ) تجهز - أي أسد الدين شيركوه - وسار إليها (مصر) وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعراب
رب كما ملكتها يوسف الصديق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الصادق من أولاد أيوب

وهذه هي المرة الثانية التي ذهب فيها شيركوه إلى مصر؛ ولو كان الشعراء ممن يعتقد برأيهم كثيراً لا وردت غير هذا مثل قصيدة العماد التي يمدح بها نجم الدين حيث يقول

يوم النوى ليس من عمرى بحسوب ولا الفراق إلى عيشى بحسوب
ما اخترت بُعدك لكن الزمان أتى كرهاً بما ليس يا محبوب محبوبى
أرجو إياي إليكم ظافراً عجلاً فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
ثم يقول

أخوك وابنك صدقاً منهما اعتصما بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما همامان في يومى وغى وقرى تعودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار وغى بالفحها يصبح الشبان كلشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غداً تحظى النفوس بتأنيس وتطيب

وليستقر بمصر يوسف وبه تقر بعد التناسل عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بأخوته والله يجمعهم من غير تريب
ويقول صاحب كتاب طبقات الشافعية « ثم اتصل والده — أى
والد صلاح الدين — نجم الدين أيوب بالملك نور الدين الشهيد فخدمه هو
وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة »

هذا كله مما يوضح لنا بأجلى بيان أن صلاح الدين لم يعيش عيشة
النسك البعيدين عن الحياة والعمل فيها ثم انتقل إلى حياة العمل والجد
والنشاط فجأة من غير سابقة ولا مقدمة تقدمت هذا المظهر الجليل والعمل
الكبير الذى عرفه العالم الأفرنجى والإسلامى عن صلاح الدين

وفوق هذا وذاك ، فالعماد يقول فى حوادث سنة ٥٧٢ هـ « فى السادس
من المحرم توفى بدمشق القاضى كمال الدين بن الشهر زوزى وعمره ثمانون
سنة ، لأن مولده فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ؛ وكان فى الأيام النورية
بدمشق هو الحاكم المتحكم ، وصلاح الدين إذ ذاك يتولى الشحنة
بدمشق ، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الأحكام الشرعية ، وربما
كسر أغراضه ، وأبدى عن قبوله إعراضه ، ويقصد فى كل ما يعرض له
إعراضه ؛ ولم صبر على جماعه بحلمه وراضه إلى أن نقاه الله من نيابة
الشحنة إلى الملك ، وصار كمال الدين من قضاة ممالك المنتظمة فى
السلك ؛ وكان فى قلبه مما فرط فيه وما فرط منه ، ما فات وقت تلافيه ؛
فأما ملك دمشق أجراه على حكمه ، ولم يؤاخذ به بجرمه ، واحترم نوابه ،
وأكرم أصحابه ، وفتح للشرع بابا ، وخاطبه واستحسن جوابه الخ »